٣ – التعليم فى مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

كل من استمع إلى بيان سعادة الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف الأسبق فى الإذاعة ، أو اطلع عليه فى الصحف ، من عبث الطلبة بالمدارس ، واستخفافهم بجميع القيم الخلقية والآداب المرعية ، وما تبع ذلك من إغلاق جميع المعاهد التعليمية فى البلاد ، مما لم يعهد له مثيل من قبل ، يعتقد بأن المدرسة المصرية أصبحت فى مسيس الحاجة إلى إصلاح شامل ، لا يقتصر على مناهجها ، بل يتجاوز ذلك إلى نظمها بل إلى روحها ، حتى لا تنتهى إلى الفشل فى مهمتها . ولقد أصبح واجباً وطنيا على جميع كبار المربين ، وعلى رأسهم الأستاذ الكبير معالى رفعت باشا وزير المعارف العمومية ، بل وعلى جميع القادة والمفكرين أن يبحثوا وأن يفكروا تفكيراً عميقاً فى علاج هذه الحال الأسيفة المؤلمة ، التى تهدد الأخلاق بالبوار ، وحياة الأمة كلها — لاقدر الله — بالدمار ، والتى أتينا على وصف الكثير منها فى مقالتينا السابقين بمجلة الرسالة الغراء ، ذات الأثر الفعال فى العمل على إنهاض هذه الأمة

إن الواجب يقضى علينا أن نذكر زعماءنا وقادتنا بما نحسه من عيوب وعقبات فى طريق نهضتنا ، لنتعاون جميعاً على إصلاح أنفسنا ، وواجبنا أن لا نستصغر ما فى هذا الأمر الجلل من خطورة ، وأن نكون صرحاء فلا نداري ولا نماري لنأخذ الأمر بما يستحقه من جد ، وأن لا يكون مثلنا مثل النعامة تغمض عينيها وتخفى رأسها فى الرمال ، ظنا منها أنها ستفلت بذلك من الصياد ، فإذا به يدهمها ويقضى عليها

لقد كان حال مدارسنا قبل ثورة ١٩١٩ ، أى منذ ثلث قرن من الزمان غير حالها اليوم . كان حالها يملأ نفوس طلابها احتراماً لها وتقديساً ، وكانت نفوس أبنائها الفتية تمتلئ تقديراً للأساتذة وتقديراً للمسئوليات الملقاة عليهم ، ولكن تلك النفوس الفتية كانت كذلك تمتلئ رهباً من النظار وكثير من الأساتذة ، فكنا نأخذ على المدرسة ما فيها من شدة وقسوة ورهبة ، كما كنا نأخذ عليها ما فيها من بعد عن الحياة الطبيعية فى روحها وفى نظامها ، ولكن الجد والاحترام والتقديس كانت أسساً تقوم عليها الحياة المدرسية كما هو الحال اليوم فى حياة المدارس الأجنبية التى بين ظهرانينا . فماذا جد فى مدارسنا فى السنين الأخيرة ، حتى بعد أبناؤها عن الجد والوقار ، وركنوا إلى العنت والاستهتار ، مما اضطر الكثيرين من الزعماء والكبراء إلى إبعاد أبنائهم عنها ، والإلقاء بهم فى أحضان المدارس الأجنبية ، التى لا شك فى أنها تضعف القومية ، ويوهن بعضها فى نفوس أبنائنا العقيدة الوطنية والدينية ، فكيف نغفل طوال السنين عن الفارق الكبير بين مدارسنا وبين تلك المدارس الأجنبية ، ذلك الفارق الذى جعل منها مدارس ممتازة يفضلها الآباء الموسرون ، ويحبها ويؤثرها على غيرها الأبناء المدللون . إن هذا الفارق واضح فى نظمها وبين فى روحها التى تشيع المحبة والتعاطف والتعاون بين أساتذتها وطلابها ، فهلا درسنا ذلك وتأملناه وعملنا له فى مدارسنا وكلياتنا ؟

إن المدارس الأجنبية تستخدم العصى أحياناً فى تأديب التلاميذ الذين عز عليها علاجهم ، ومدارسنا منعت فيها عصى التأديب من زمن بعيد ، ومع ذلك ترى الناشئ فى المدرسة الأجنبية التى تهوى بعصاها عليه أحياناً يحترمها ويقدسها ، أما عندنا فـ . . . . ، ولم يبق لدينا اليوم غير كلية واحدة أو كليتين ، ومدرسة ثانوية أو مدرستين هى التى حافظت على كيانها ولم تتأثر كثيراً بما يجرى فى مختلف الكليات والمدارس ، فحفظت توازنها واحترام طلابها لها . أعتقد أن كلية الطب هى من بين الكليات ، والمدرسة الثانوية النموذجية هى من بين المدارس الثانوية التى لا زال الجد والوقار يحف بهما فى عملهما ، ولما يتسرب إليهما الفساد الذى سرى فى غيرهما ، وأسأل الله أن يحفظهما من هذا العبث . فهلا تعرفنا الأسباب الحقيقية لذلك علنا نرسم الخطة المثلى للعودة بالمدرسة المصرية إلى جدها ووقارها !

إن الجفوة بين الطالب وكليته وبين التلميذ ومدرسته ، كما وأن الجفوة بين المدرسة المصرية والبيئة المحيطة بها ، هاتان الجفوتان اللتان تميزت بهما مدارسنا جفوتان قديمتان ، نبهنا إلى علاجهما من زمن بعيد في تقاريرنا وفي مقالاتنا وفي كتابنا « التعليم والمتعطلون في مصر » الذي أصدرناه منذ ثلاثة عشر عاماً ، وقد جاء في مقدمته : « عملت بين جدران المدارس زماناً طويلا ، كنت أحس فيه أن المدرسة التي عملت فيها تلميذاً ، والتي عملت فيها مدرساً ، والتي عملت فيها ناظراً ، لم يتناولها شيء محسوس من التغيير ، ولم يتطرق إلى روحها شيء من التجديد ، فهي لا زالت تسير على نفس الوتيرة القديمة ، مليئة بنفس الروح القديمة ، يحس تلميذها إذا ما دخلها بانقطاعه عن العالم وما فيه ، إلى شبه سجن غير محبوب إذا لم يوصف بأنه مكروه ، ولكن الجميع ظلوا يكبتون عواطفهم إزاءها ، لما تجلبه من خير الوظيفة إلى طلابها بعد نيل شهادتها ، وظلت المغريات القديمة تدفع الناس دفعاً للسعي إليها »

وجاء في تقرير رفعته إلى معالي وزير المعارف في مارس سنة ١٩٢٨ ما يأتي : « فالمدرسة الابتدائية وكذا الثانوية لا زالت منفصلة تماماً عن البيئة المحيطة بها ، يدخلها التلميذ فيتصور أنه في عالم آخر غير عالمه الذي يعيش فيه ، ونظرية حشو الأدمغة بالمعلومات البعيدة عن الحياة العملية لا زالت متجسمة في المنهج الجديد تجسمها في القديم ، ولا زال كثير من التلاميذ يبغضون المدرسة وذكرها وكل ماله مساس بها »

وجاء في صفحة ١٨ من مؤلفي السابق الذكر في الكلام عن المستر دنلوب الذي ظل مستشاراً للمعارف أكثر من ربع قرن من الزمان في بدء الاحتلال ما يأتي : « بهذه الطريقة أوجد دنلوب بين جدران المدارس نظاماً عسكريا جافا شديداً ، إذ أصبح خير نظار المدارس ذلك الذي يقلده في كبريائه وشدته ، فاجتهد كل ناظر أن يقسو القسوة كلها على مرؤوسيه وتلاميذه ، وحاول المدرس بدوره أن يعامل أبناءه بمنتهى الشدة والجفاء ، وأن يبتعد عنهم ويتكبر عليهم ما أمكنه الابتعاد والكبرياء ، حتى أصبحت العلاقة بين المدرس وتلميذه علاقة عداوة وشحناء ، لا عطف فيها ولا مودة ولا هوادة ، كل يتربص بصاحبه الدوائر ويحاول إيذاءه بمختلف الوسائل ... الخ »

ولقد ظل الحال كذلك والمستعمر ينفث سمومه في التعليم ، حتى أفسد جوه ونجح في تبغيض الأبناء في المدرسة وكل ما فيها ، لكن هذا الشعور ظل مكبوتاً زمناً حتى ثارت البلاد ثورتها سنة ١٩١٩ تطلب حريتها ، فبدأ التلاميذ يتمردون على المدرسة ، وبدأ شعور الكراهية يظهر شيئاً فشيئاً ويزداد ظهوراً كلما ضغط المستعمر على البلاد ، وحاول إخضاعها للحديد والنار ، وجاء دور الحزبية التي شجعها المستعمر فلعبت بعقول التلاميذ والطلاب ، وزادت نار الحقد والكراهية أوارا حتى صاروا في شبه ثورة جامحة على المدرسة ونظمها وتقاليدها وكل ما فيها ، وفقد الأساتذة سلطانهم الروحي والعلمي عليهم ، خصوصاً بعد أن اضطرتنا ظروف نشر التعليم الفاجئة السريعة أخيراً إلى الالتجاء إلى كثير من المدرسين الحديثين ، الضعاف في مادتهم والضعاف في أساليبهم وسلطانهم الروحي والعلمي .

ولو أن المدرسة كانت محببة إلى أبنائها ، ولو أنها كانت متصلة اتصالا وثيقاً ببيئتها متفاعلة معها ، وكان أساتذتها ذوي سلطان علمي قوي على تلاميذها ، ووجد فيها التلاميذ الغذاء العلمي والروحي الذي يطمئنهم ويرضي نفوسهم كما هو الحال في المدارس الأجنبية وفي كلية الطب وفي المدارس الثانوية النموذجية لما فعل الطلبة بمدارسهم هذه الأفاعيل ، ولما استباحوا لأنفسهم حرماتها وعبثوا بمقدساتها ، ولو أن المدارس الأجنبية في مصر والمدارس الثانوية النموذجية وكليات الطب كانت غير محببة لدى أبنائها ، غير عابئة كغيرها بالاتصال بالحياة المحيطة بها ، ذلك الاتصال الذي يجعل منها قطعة من الحياة ، لما حرص عليها طلابها ، ولفعلوا بها كما فعل غيرهم من الأبناء ، فالكل مصريون والكل شعورهم واحد وبيئتهم واحدة

لهذا كله أدعو مجالس الكليات كما أدعو كبار المسئولين من التعليم إلى دراسة أحوال الكليات والمدارس دراسة عميقة لجعل